إيلي شلهوب*

# لمصلحة من يُدفع الشيعة

**غريبة طريقة التعامل هذه مع حزب الله. محاولة حشره في الزاوية. الإصرار على لف الطوق حول عنقه بهدف نحره. ممارسة مستمرة منذ سنوات، رغم نتائجها العكسية: دفعت الشيعة إلى التماهي مع الحزب ومع سلاحه حتى باتوا كينونة واحدة بحلقات ثلاث تحمل ذاكرة جماعية من المظلومية التاريخية وعقيدة مهدوية كربلائية تنزع نحو الاستشهاد... الجماعي**

بعيداً عن لغة التخوين، التي طبعت الخطاب السياسي على مدى السنوات الماضية، وبعيداً عن المصطلحات الكبيرة (مقاومة وتحرير وحرية واستقلال وسيادة) التي شكلت مفرداته، أو حتى الاستراتيجيات الإقليمية والدولية التي سعت الأطراف كلها إلى حشر الانقسام الداخلي القائم في أتونها، لا بد من عودة إلى المربعات الأولى، إلى الأنفاق الطائفية والمذهبية البغيضة، إلى الأزقة المصلحية الضيقة والتوازنات المحلية المقيتة، التي تمثّل الينبوع الأساس الذي يرفد كل أنهر الخوف الذي يلامس حد الغيرة، والنبذ الذي يلامس حد الحقد، على حزب الله. بل لا بد من خلع القفازات ومقاربة الأمور كما هي، بصورتها البدائية ومصطلحاتها الخام التي يجري تداولها في الصالونات المقفلة، بعيداً عن الإعلام، حيث يرتدي الخطاب لبوس الوطنية والديموقراطية ومفهوم الدولة والصراع والحياد وما إلى ذلك من مصطلحات ملّها اللبنانيون لكثرة اجترارها.

لننطلق بداية من فرضية أن الانقسام القائم في لبنان (والمنطقة) منذ عقود هو بين مدرستين تتساويان في وطنيتهما وحرصهما على استقرار البلد ورفاهية بنيه وإن كانتا لا تخلوان من متعاملين: تقول الأولى بعدم إمكانية تحييد لبنان عن صراع المنطقة على قاعدة أن إسرائيل قائمة على العدوان والتوسع، وأنها لا تفهم سوى لغة القوة التي لا يمكن استرداد الحقوق إلا من خلالها. أما الثانية فتقول بلاعقلانية الخيار الأول نظراً لكون الطرف المقابل أعتى قوة عسكرية في المنطقة ومدعومة من أعتى قوة عسكرية في العالم. وتحاجج هذه المدرسة بأن عدم التكافؤ العسكري لصالح العدو يفترض تحييد السلاح عن المعادلة وخوض الصراع بأدوات أخرى، في مقدمتها المفاوضات التي تراها الوسيلة الأنجع لاستعادة ما تبقى من حقوق. انقسام بين خياري هانوي وهونغ كونغ، على ما جرى تداوله في تسعينات القرن الماضي في لبنان حيث أدت سوريا دور ضابط الإيقاع بينهما.

وقتها تم التوافق على المعادلة الشهيرة: الجنوب والمقاومة لحزب الله، والاقتصاد والداخل لرفيق الحريري. معادلة لم تأت من العدم. كانت أصدق تعبير عن هوية كل من الطرفين. هذا الذي بنى استراتيجية حكمه على فرضية «السلام الآتي» من مؤتمر مدريد وروافده، ومعه تلك الزمرة المعنية بتقاسم الكعكة الداخلية. وذاك الذي مضى في المهمة التي اختارها لنفسه، أي مقاومة إسرائيل وتحرير الأرض، محيّداً نفسه عن كل شأن داخلي (أياً تكن الخلفيات، سواء لجدول أعمال إقليمي أو لأسباب محض ذاتية أو لتوجهات ميتافيزيقية تتحكم بسلوكه. وبغضّ النظر عن السجال حول احتكار المقاومة في الجنوب عبر «مؤامرة» سورية – إيرانية).

## الولادة الطالبانيّة

كانت تلك تسوية ما بعد الحرب الأهلية التي أدّت المتغيرات الداخلية دوراً أساسياً في اندلاعها وتأججها، رغم كل المحاولات الرامية إلى تحميل الخارج وزرها كلها. لعل أبرز هذه المتغيرات ذاك المتعلق بالحركة الديموغرافية التي أعطت المسلمين، والشيعة منهم على وجه الخصوص، تفوقاً عددياً عن باقي الطوائف دفع بهم إلى المطالبة بالمساواة وبالحقوق السياسية المسلوبة عبر تعديل دستوري، فضلاً عن الأزمة الاقتصادية التي كانت (ولا تزال) وطأتها أكبر على تلك الطائفة المهمشة حيث الفئة العمرية الشابة (القادرة على حمل السلاح والتي تعدّ محركاً لتقدم لأي فئة اجتماعية) تؤلّف قاعدتها الأوسع (وهذا لا يعني تجاهل المهمشين من باقي الطوائف والمناطق، لكن التركيز على الشيعة جاء لضرورات البحث). من هنا ولدت حركة المحرومين التي أسسها الإمام موسى الصدر، والتي خرجت من ثناياها حركة أمل. ومن هنا أيضاً كان الانقسام بين جبهة لبنانية مسيحية رفعت لواء الحفاظ على الوضع القائم (أي الامتيازات التي منحتها لها صيغة 1943) والجبهة الوطنية «المسلمة» التي رفعت لواء «الشراكة» في السلطة والقرار، بمعنى أن الصراع الأساس كان حول صيغة الشراكة في الحكم، وانقسام المجتمع اللبناني إلى مواطنين درجة أولى وثانية وثالثة...

أما العوامل الخارجية، فهي التي أعطت الحرب طابعها وهويتها ووقودها: انتهت حرب 1973 إلى قناعة عربية بأنها الحرب الأخيرة ضد إسرائيل، وبدأت الأطراف المعنية معركة جديدة لامتلاك القدر الأكبر من الأوراق التي يمكن استخدامها على طاولة المفاوضات. كانت الساحة اللبنانية، بتناقضاتها وأزماتها المحلية، وبحكم وجودها على الحدود الإسرائيلية والوجود الفلسطيني فيها، الساحة المثالية لصراع بالوكالة أداره فريقان؛ الأول، أقلّوي كياني يسعى للاحتفاظ بالسلطة، اختار التحالف مع المعسكر الغربي ومع ربيبته في المنطقة. أما الثاني فأكثري بامتدادات قومية وإسلامية وماركسية يسعى لانتزاع حقوق. تحالف مع الفلسطينيين في الداخل والأطراف الإقليمية والدولية الداعمة لهم. وذلك قبل أن يرتدي الصراع لبوساً آخر، بين مدرستين: مدرسة كامب ديفيد، والمدرسة الخمينية التي حملت لواء مقارعة إسرائيل التي كانت تتولاها في فترة سابقة المدرسة الناصرية.

في هذا السياق المحلي والإقليمي ولد حزب الله عقب عدوان 1982: طائفة فتية مزارعة في الأساس، تتضخم عددياً، هي الأكثر حرماناً وتضرراً من الكيان الإسرائيلي، حكم عليها العثماني بداية ومن بعده الفرنسي ومن ثم الآخر اللبناني أن تكون الأقل حظوة في التراتبية السياسية والاجتماعية والاقتصادية في لبنان حيث عمل الإمام الصدر على تأطيرها سياسياً قبل أن يتهاوى نظام الشاه فجأة لصالح جمهورية إسلامية فتحت مخازنها وجيوبها لوليدها الجديد (حزب الله) الذي تألّف من تجمع مجموعة من التنظيمات الإسلامية الشيعية التي كانت تلعب على الساحة في ذاك الزمن.

ولادة من رحم كربلاء، بكل ما تعنيه من نزعة استشهادية، رفعت عنوانين سياسيين خطّتهما الثورة الخمينية: إسرائيل غدّة سرطانية وأميركا الشيطان الأكبر. والحديث هنا عن الرحم الكربلائية ليس من باب الإطناب ولا لغايات ترفية. هي المقاربة الوحيدة التي يمكن من خلالها فهم حزب يعبّر عن طائفة تحمل ذاكرة جماعية وإرثاً من "المظلومية" عمره أكثر من 1400 عام، مذ «سُلب» الإمام علي حقه في الخلافة، ومقتل ابنه الحسين في واقعة كربلاء الشهيرة، إلى موت كافة ورثته من «الأئمة المعصومين» قتلاً أو تسميماً، على ما تقول الرواية الشيعية.

والمهم طبعاً ليس واقعة حصول هذه الأحداث من عدمه، بل حقيقة أنه بهذه الطريقة ينظر الشيعة إلى نفسهم وتاريخهم الذي لا يزال يحفر عميقاً في وجدانهم. لعل قروناً من الاضطهاد الذي تعرض له الشيعة، على ما هو عالق في عقلهم الجماعي، أدى دوراً أساسياً في هذا التماهي بين واقعهم وبين ذاكرتهم التاريخية المدعومة بعقيدة كربلائية – مهدوية نجحت الحوزات في الحفاظ عليها عن طريق التمسك باستقلالية إدارية ومالية (الخمس) مثّلت الضمانة التي حفظت التشيع والشيعة ومنعت السلاطين المتعاقبين من تدجين هذه الطائفة المتمردة.

الشق الكربلائي من العقيدة الكربلائية – المهدوية هو المسؤول عن نزعة الاستشهاد لدى معتنقيها. والاستشهاد هنا له قوانينه وضوابطه الفقهية. هو ليس هدفاً بحد ذاته، بل وسيلة تُستخدم لتجنب «الذل» («هيهات منا الذلة» للإمام الحسين) و«حفظ البقاء» («أتهددنا بالموت يا ابن الطلقاء، الموت لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة. كد كيدك واسع سعيك وناصب جهدك والله لن تمحو ذكرنا» وهو قول ينقل عن السيدة زينب في مخاطبتها يزيد بن معاوية). بمعنى أن «الشهادة» وسيلة للعيش «بكرامة» ولحفظ حياة الآخرين. ثقافة الموت التي تَلد حياة (في الآخرة للشهيد وفي الدنيا لمحبيه). وأسمى أنواع الشهادة تتحقق، بحسب معتنقي الخمينية، على يد «المغتصب الصهيوني». بهذا المعنى، يتجاوز مفهوم الصراع مع

> التقدير الأكثر صدقية هو أن القرار الظني جاء نتيجة للعجز العسكري عن توجيه ضربة لحزب الله

إسرائيل تحرير الأرض والذود عن الحدود، إلى جسر مرور إلى الجنة الموعودة بالحد الأدنى، والمساهمة في تمهيد الأرض لظهور الإمام المهدي وإقامة دولته المنتظرة وعاصمتها النجف الأشرف.

وهنا نأتي إلى الشق الثاني من العقيدة: المهدوية، الأمل المنتظر في إحقاق العدل والمساوة واستعادة الحقوق في الحياة الدنيا. بهذا المعنى لا مكان لليأس لدى أتباع هذه العقيدة. صحيح أن هناك ظلماً تاريخياً، على ما يعتقد معتنقوها. لكنه ظلم ليس بلا أفق. هناك الأمل الموعود، الذي يعدّ الجهاد في سبيل زوال إسرائيل أحد شروط تحققه.

لعل في ذلك ما يوضح بعض الشيء مفهوم المقاومة لدى حزب الله. هي ليست فعلاً سياسياً مجرداً. هي إكسير حياة. فعل وجود. جزء لا يتجزأ من كينونة هذه الجماعة البشرية ومن صيرورتها.

بهذا الموروث العقائدي ظهر حزب الله بنزعة «طالبانية» فرضتها حداثة الثورة الخمينية والحماسة التي رافقتها والتي عززها الاجتياح الإسرائيلي لبيروت. تنظيم جديد متقوقع عقائدياً، متطرف دينياً. جامد حد التحجر. لا يعرف الآخر ولا يريد. يضرب خبط عشواء بلا حسابات ولا ضوابط، باستثناء الشرعية منها. تنظيم حديدي، لم يمانع في خوض اقتتال شيعي شيعي يوم شعر أن المقاومة في خطر. لكنه وفي أوج «طالبانيته»، كان يعترف بهذا «الآخر» شريكاً في الوطن لا بد من العيش معه، على ما تظهر أدبياته في تلك الفترة.

## دولة داخل الدولة

أياً يكن من أمر. انتهت الحرب اللبنانية إلى منتصر ومهزوم ولو ألبسوا الاتفاق – التسوية لبوس «لا غالب ولا مغلوب». جرى تعديل الدستور وأعطي الشيعة بعضاً من حقوقهم السياسية فيما زادت خطة إعادة الإعمار التي ركزت على بيروت العاصمة، مظلوميتهم الاقتصادية. ودخل الجميع لعبة إعادة بناء الدولة (أو نهبها)، فيما انصرف هذا الحزب لمحاربة إسرائيل، مدعوماً من طهران ومحمياً بالتحالف السوري – الإيراني الذي بدأ مع أوائل التسعينات يتحول شيئاً فشيئاً إلى تحالف استراتيجي.

مرت السنون وبدأ نفوذ هذا الحزب يتضخم داخل الطائفة الشيعية. خلق الآلاف من فرص العمل، سواء داخل الحزب أو في المؤسسات التي تتبع له. ولم يترك قطاعاً اجتماعياً تنموياً يعتب عليه؛ أقام المؤسسات الصحية والتربوية والمصرفية ودور الرعاية الاجتماعية ودور النشر ... إلى الحد الذي بات فيه «دولة داخل الدولة» التي كانت حريصة، على ما يظهر، على تغريب الشيعة. هي لم تحاول أصلاً العمل على دمجهم في أطرها، على الأقل بحسب ما يعتقد أبناء هذه الطائفة. وهنا لا بد من الإشارة، بين المزاح والجد، إلى أن أحداً لم ينتبه إلى أن هذه الدولة «الحزبللهية» جنّبت الدولة الأم، عن قصد أو عن غير قصد، الكثير من الخضّات الاجتماعية بإنفاقها مئات الملايين من الدولارات سنوياً (20 مليار دولار بالحد الأدنى خلال 20 عاماً) على المناطق الشيعية وتوفير الخدمات التي كان يفترض بالدولة أن توفرها منذ عقود.

مهما يكن، فإن حزب الله أدى خلال هذه الفترة دورين أساسيين. الأول نفسي. أعطى الشيعة شعوراً بالفخر والاعتزاز بما أنساهم، بعض الشيء معاناتهم الاقتصادية والاجتماعية، بل حتى عقوداً من المعاملة كمواطنين درجة ثالثة. كان خطاب واحد للسيد حسن نصر الله حول المقاومة وبطولات المقاومة كافياً ليخلد أهل هذه الطائفة إلى أسرّتهم هانئين قانعين، ولو كانت ثلاجاتهم خالية من الطعام أو جيوبهم من المال.

أما الدور الثاني فاجتماعي. مثّل حزب الله وسيلة للارتقاء واكتساب الاحترام؛ وضع اقتصادي مزر وأبواب وظائف الدولة مقفلة في وجه الشيعة، باستثناء «المحظوظين» من حركة أمل (توازن مذهبي مفروض وغالبية عددية شيعية)، كان أمام هؤلاء حل من اثنين: إما اللجوء إلى أفريقيا سعياً وراء لقمة العيش، أو الانضمام إلى حزب الله. وأدّت الهالة والتقديس اللذان منحهما الحزب للشهداء، إلى تعزيز مفهوم الشهادة في صفوفه، خاصة في ظل الاهتمام والرعاية التي يمنحها لعائلات هؤلاء.

راكم حزب الله عناصر القوة والخبرة والسمعة، مع كل جولة جديدة مع إسرائيل. لكن الأهم أنه راكم معها نضجاً سياسياً، جعله أكثر مرونة ودبلوماسية وتفهماً للآخر، سواء كان شريكاً في الوطن، أو في الطائفة. حتى تزمّته الديني حصَرَه داخل صفوفه وأوساطه. علماً بأن حزب الله لم يحظ يوماً بإجماع شيعي حوله، ولا حتى حول عمله المقاوم. كانت هناك دوماً تحفظات على بعض رموزه الدينية، من مثل التشادور، أو ارتباطاته الإقليمية (إيران).

في المقابل، حرص حزب الله على عدم الخوض في السياسة الداخلية اللبنانية لأسباب متعددة، لعل بينها انتفاء الحاجة، السياسية والأمنية، ما دام ظهر المقاومة محمياً، وحتى الخدماتية التي كان الحزب يؤمنها بنفسه. هناك انتفاء الرغبة لدى هذه الجهة التي تعمل، كما سبق وذكرنا، لآخرتها وليس لدنياها. من يهتمّ بالكبائر، مقارعة الصهاينة وتمهيد الأرض لظهور الإمام المهدي والسعي نحو الشهادة طمعاً بالجنة، لا تعنيه الصغائر الدنيوية (يمكنك أن تجد مسؤولاً جهادياً يدير ملايين الدولارات الخاصة بالمقاومة فيما تعاني عائلته فاقة مالية، علماً

الأخبار al-akhbar
تأسست عام 1953
تصدر عن شركة «أخبار بيروت»
رئيس التحرير المؤسس
جوزف سماحة
(2007-2006)
مستشار مجلس التحرير
أنسي الحاج
■ مدير التحرير خالد صاغية ■ سكرتير التحرير حسان الزين ■ مجلس التحرير
عربيات دوليات إيلي شلهوب، ثقافة بيار أبي صعب، مجتمع ضحى شمس، رياضة علي صفا، عدل عمر نشابة، اقتصاد محمد زبيب
■ المدير الفني اميل منعم
■ رئيس مجلس الادارة والمدير المسؤول ابراهيم الأمين
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس ■ تلفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب 113/5963 ■
www.al-akhbar.com
■ الاعلانات Tree Ad 01/611115 ـ 03/252224
■ التوزيع شركة الأوائل 01/666314ـ15 ـ 03/828381